البعد القومي في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي

قرين مولود
المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–

تمهيد:

رغم محاولات الإدارة الفرنسية الهادفة إلى عزل الجزائر عن العالم العربي الإسلامي،وتمزيق المرجعية الحضارية للأمة الجزائرية وتشويه هويتها العربية الإسلامية، إلا أنها عجزت عن زعزعة عقيدة الجزائريين الراسخة في انتمائهم الطبيعي، وظل البعد العربي الإسلامي مرتبطا بالحركة الوطنية منذ بداية الاحتلال، متخذا عدة أشكال كالهجرة والمكاتبات الصحفية التي شكلت أرقى درجات التواصل الفكري والحضاري بين الجزائريين وإخوانهم في المغرب والمشرق العربيين، وقد أصبحت هذه الصلات أكثر وضوحا خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وذلك نتيجة ظهور الحركة الإصلاحية الجزائرية التي تهيكلت فيما بعد في جمعية العلماء المسلمين 5 ماي 1931. وأهم ما ميز الجمعية ارتباطها الوثيق بقضايا العرب والمسلمين، ولعل من أبرز قادتها الذين عبروا صراحة عن تعلقهم بقضايا العالم العربي والإسلامي الشيخ البشير الإبراهيمي (1889-1965م)، فالمطالع لآثاره ومختلف أدبياته يستشف بأن الشيخ الإبراهيميلم تشغله مآسي وطنه الصغير عن تتبع آلام وطنه الكبير، فإلى جانب اهتماماته بالقضايا الوطنية الدينية والتربوية والاجتماعية والسياسية، فإنه كان ملما بكل التطورات التي شهدها العالم العربي والإسلامي خلال النصف الأول من القرن العشرين، حيث

وقف بقلمه مناصرا للأقطار العربية الإسلامية في كل النكبات التي مرت بها، متصديا لكل ما يحاك ضدها من مؤامرات أجنبية استعمارية، وذلك لما له من حقوق في عنق كل فرد من أفراده والمتمثلة في : " حق الدين، حق اللغة، حق الجنس، وحق الاشتراك في الآلام والمحن، وفي الآمال المقترحة على الزمن، وهذه كلها أرحام يجب أن تبلَّ بِبُلاَلها، وحقوق في ذمة المروءة يجب أن تؤدى..."[1]. كما أن تفاعل "الإبراهيمي" مع القضايا الإسلاميةكان نتيجة إيمانه العميق بمبدأ الأخوة الإسلامية التي فرضته النصوص القرآنية والسنة النبوية، مثل قوله تعالى: ((إنما المؤمنون إخوة))، وكذلك قوله تعالى: ((وأن هذه أمتكم أمة واحدة)). وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)).

1/ **الإبراهيمي وقضايا المغرب العربي:**

أ/ الصلات الثقافية بين الإبراهيمي والنخبة التونسية:

رغم أن البشير الإبراهيمي كان من المصلحين والأدباء الجزائريين القلائل الذين لم يدرسوا في جامع الزيتونة الذي كان منارة علمية في تونس وقبلة الجزائريين المتطلعين إلى إنماء معارفهم، إلاّ أنه كان لا ينفك في التعبير عن الانتماء إلى أسرة الزيتونة، باعتباره تتلمذ في المدينة المنورة[2] على أيدي أحد أقطاب الزيتونة وهو "الشيخ محمد العزيز الوزير" الذي أخذ عنه شرح الموطأ وفقه الإمام "مالك" والتوضيح لابن هشام، وفي هذا الصدد قال الإبراهيمي: " أنا لم أتخرج من الزيتونة، ولم أقرأ في الجامع حرفاً، ولكني تخرجت بالمدينة المنورة على أضواء كواكب الزيتونة في وقته ولا أحابي محمد العزيز الوزير التونسي رحمه الله فكانت لي بسببه صلة بالزيتونة مرعية المَتَاتْ آمنة الانبتات..."[3]. كما كان له اعتقاد تام لما لتونس من فضل في النهضة

الجزائرية، وأن حركة الإصلاح في الجزائر قامت أساسا على عواتق خرجي معهد الزيتونة، فتونس في نظر الإبراهيمي هي " ...قبلة الجزائر العلمية ومأزرها الذي تأزر إليه في النوائب، ومنارتها التي تشرف منها على أنوار الشرق فلا عجب إذا حرصت جمعية العلماء على تمتين الحبال الواصلة بين الجزائر وبينها، وعلى توضيح من أحوال الجار على جاره..."[4]. لذلك شدّ الرّحال في حدود 1934م إلى تونس للقاء علماء الزيتونة والطلبة الجزائريين الذين اجتمع إليهم وحثهم على المساهمة في الصحافة التونسية وعقد الصلة بينهم وبين نظرائهم التونسيين، وقد كللت زيارته هذه بتأسيس "جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين"،حيث تولى بنفسه تأسيس الهيئة الإدارية للجمعية التي أعلن عنها رسميا سنة 1934[5]. ويبدو أن هدف الإبراهيمي من وراء تأسيس هذه الجمعية يتمثل في إقامة تنظيم قانوني يتكفل بحل مشاكل الطلبة الجزائريين في تونس من جهة، ومن جهة أخرى يكون بمثابة سفارة لجمعية العلماء في تونس يعرّف بقضية الجزائر ويمتن أواصر الأخوة والتعاون الفكري والثقافي وحتى المادي بين الشعبين الشقيقين.

وتوثقت علاقات الإبراهيمي بتونس وبعلماء الزيتونة أكثر بعد تأسيس " معهد ابن باديس"[6] في الأربعينيات من القرن الماضي الذي "كان فرعا من فروع الزيتونة، يتبع في جميع برامجه وامتحاناته المناهج المقررة في الزيتونة، ويشرف على امتحاناته السنوية ثلة من علماء الزيتونة[7]. فمن أجل الحصول على موافقة إدارة الزيتونة على هذا المعهد، عمد الإبراهيمي إلى الاتصال "بجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين" كي تتولى الاتصال بالشيخ "محمد الطاهر بن عاشور"، وفعلا أقامت الجمعية – حسب ما يرويه المرحوم عبد الرحمن شيبان- بناديها الكائن بنهج عبد الوهاب بتونس حفل تكريم للأستاذ "بن

عاشور" حضرته مجموعة من الوجوه الثقافية وخلال الحفل عرضت على مدير الزيتونة "بن عاشور" رغبة الجمعية "فأكبر هذه المبادرة وعبر عن اغتباطه الشديد بأن يعترف بمعهد يحمل اسم أحد تلاميذه الأصفياء الإمام عبد الحميد ابن باديس كفرع للجامعة الزيتونية".وحسب الباحث التونسي "محمد صالح الجابري" أن السبب الذي حدا بالإبراهيمي بأن لا يتقدم بهذا الطلب بنفسه وكلف الجمعية الطلابية بهذه المبادرة هو الخصومة التي كانت بين "ابن باديس" والشيخ "بن عاشور" حول مسألة دينية، وكان الإبراهيمي قد انحاز لصف "ابن باديس"، فخشي أن يكون "بن عاشور" قد احتفظ ببعض الحساسيات إزاء هذا الموقف[8].

ونتيجة الموقف الإيجابي الذي وقفه الشيخ "بن عاشور" من "معهد ابن باديس" وإعلانه بأنه سيمد يد العون له بمختلف الطرق والوسائل، بادر الإبراهيمي بفتح صفحة جديدة مع الأستاذ[9]، و أصبح يكرس قلمه كلما سنحت له الفرصة للتنويه بخصال ومناقب الرجل وفضله في نشر العلم وبذور النهضة ليس في تونس فقط وإنما في العالم العربي والإسلامي ككل[10]، وهذا ما نلمسه من خلال مقال مطول نشره في جريدة البصائر خصصه لذكر مناقب بن باديس وابن عاشور، ومما قاله الإبراهيمي في هذا الأخير: "...الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية، مستقل في الاستدلال لها، واسع الثراء في كنوزها فسيح الذرع بتحملها، نافذ البصيرة في معقولها، واسع الإطلاع على المنقول منها، أقرأ وأفاد، وتخرجت طبقات ممتازة في التحقيق العلمي، وتفرّد بالتوسع والجديد لفروع من العلم ضيقها المنهاج الزيتوني، وأبلاها الركود الذهني، وأنزلتها

الاعتبارات التقليدية دون منزلتها بمراحل، فأفاض عليها هذا الإمام من روحه وأسلوبه حياة وجدة، وأشاع فيها مائية ورونقا حتى استرجعت بعض قيمتها في النفوس ومنزلتها في الاعتبار ... هذه لمحات دالة –في الجملة– على منزلته العلمية، وخلاصتها أنه إمام في العمليات لا ينازعه في إمامته أحد..."[11].

ورغم إشادة الإبراهيمي بعهدة بن عاشور في إدارته للزيتونة وذكرِهِ بأنه : " لم ير جامع الزيتونة في عهوده الأخيرة عهدا أزهر من هذا العهد، ولم ير في الرجال المسيرين له رجلاً أقدر على الإصلاح، وأمدَّ باعا من شيخه الحالي"[12]، فإن ذلك لم يمنعه من إبداء انتقادات جريئة وشجاعة لمناهج التعليم في جامع الزيتونة، ففي نظره "أن في الجهاز التعليمي بجامع الزيتونة خللا يحتاج إلى الإصلاح، وعللا يجب أن تزاح، ونقائص يجب أن تلغى، وكلها بقايا من إصلاحات خير الدين"[13]،لم تعد تصلح لخير العلم ولا لخير الدين"[14]

ففي نظر "الإبراهيمي" أن مناهج الزيتونة لا تصلح لهذا الزمان الذي كثر فيه الأعداء والمتربصون بالإسلام، كما أنا العلوم العصرية التي يسميها بالعلوم "الغربية" قد زاحمت العلوم الإسلامية، وفتنت الشباب المسلم الذين تعلقوا بمظاهر الحضارة الغربية، وأصبحوا على حد تعبيره "يتبرجن تبرج الجاهلية الثانية"، فالتعليم بوضعه الحالي – حسبه– " لا يكفل لنا سدّ أبواب هذه الفتن"[15]. لذلك ألح الإبراهيمي على إصلاح جامع الزيتونة، وفي اعتقاده أن الإصلاح لا يتم إلا إذا توفرت فيه ثلاثة شروط هي: (الاستقلال والمال والرجال).

أما الاستقلال – وهو أهم الشروط- " فهو أن تصبح الكلية الزيتونة بمنجاة من التسلط الحكومي كيفما كان لونه، بعيدة عن المؤثرات السياسية والتيارات الحزبية، مثبتة وجودها الذاتي بأنها تؤثر ولا تتأثر، فمن حاول إخضاعها لنزعة حكومية، أو جرها لمذهب سياسي، أو توجيهها لوجهة حزبية، فهو مفسد خبيث الدخلة"[16].

ويبدو أن جعل الإبراهيمي لشرط الاستقلال كأهم شرط، هو أن يكون التعليم الزيتوني غير تابع للتعليم الحكومي ذو الأبعاد والأهداف الاندماجية هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن لا يوجه خريجو المعهد إلى الوظائف الرسمية، التي يرى بأنها "قيدا للنبوغ، بل مدفناً للعبقرية"[17].

أما المال فإن الإصلاحات تتطلب أموال ضخمة التي تستطيع خزينة الدولة تلبيتها، لذلك يجب توسيع الأوقاف الإسلامية، وحث الميسورين من الأمة على النفقة لصالح جامع الزيتونة، "فإن الكليات حتى في أغنى أمم العالم لا تقوم على مال الحكومة المحدود وحده، وإنما تقوم على عطاء الكرماء وبذل المحسنين فهل آن لأمتنا أن تعلم هذا فتعمل به؟"[18].

أما الرجال فيقول الإبراهيمي: " ...فإن في الزيتونة رجالاً لو تعاونوا وسلموا من داء المنافسة على الرياسة لحققوا الآمال في الإصلاح، ولعجّلوا به، وقد كانوا ينتظرون القائد الحازم فقد وجدوه..."[19]. فالإصلاح في نظر الإبراهيمي لا بد أن يتم في جو بعيد عن القصر وعن مجالس الوزراء، وعن الاستعمار ودسائسه ومكائده. فعلى الزيتونيين الالتفاف حول "الإمام المدرب الفقيه المجتهد الجامع لشروط الإمامة ... الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور"[20]، لتحقيق الإصلاح المنشود القادر على استيعاب مجالات علمية أخرى معاصرة التي كان يسميها بعلوم الحياة[21].

كما أشاد الإبراهيمي بالدور الفعّال الذي تلعبه "الجمعية الخلدونية"[22] في بعث التراث الإسلامي وإرساء قواعد النهضة العربية الإسلامية في تونس وكذلك في الجزائر خاصة منذ أن ترأسها الشيخ "بن عاشور" الذي خطى خطا واسعة في سبيل الإصلاح، كما أكبر بمبادرتها في عقد "مؤتمر الثقافة الإسلامية" سنة 1949م وتمنى أن يكون سنة حميدة تتلوها مؤتمرات أخرى ترفع "رأس هذا الشمال الإفريقي الذي أمعن في الهزل، فبدا عليه الهزال"[23] . ووعد الإبراهيمي بأن الجمعية سترسل وفدا يمثلها في المؤتمر، وذلك حتى يكون "رمزاً للتعاون العلمي والتناصر الأخوي"[24].

ولّما تعذر على "الإبراهيمي" حضور المؤتمر بعث برسالة إلى المؤتمرين تأسف لهم فيها عن عدم قدرته على الحضور، وقال بأن أعماله الثقافية وجهوده التربوية في الجزائر منعته من تلبية الدعوة، حيث قال: " ...أيها الإخوان: تمنيت – منذ دعا داعي المؤتمر فأسمع- أن أكون من حاضريه ومن المشاركين لكم بجهد المستطيع في بنائه وتعميره، ولكن أعمالي للثقافية الإسلامية، في وطن متطلع للثقافة الإسلامية، عاقتني عن حضور مؤتمر الثقافة الإسلامية، وعسى أن تكون أعمالي شفيعة لي عند إخواني فلا يرمونني بالتقصير..."[25]. وذكّر المؤتمرين بالدّور الذي يجب أن يلعبه عالم الدين في خدمة الأمة الإسلامية، وفي قيادتها نحو ما ينفعها، ومما قاله الإبراهيمي في ذلك: "... إن قيادة علماء الدين للأمة هي وظيفتهم الأصلية، وهي وظيفة يفرضها الدين ويرتضيها العقل، وتوجبها مصلحة المسلمين، وقد فرّط علماؤنا في القيام بهذه الوظيفة منذ أزمنة متطاولة، فخرجت القيادة من أيديهم إلى أيدٍ لا تحسن القيادة، أو تحسنها في سبيل غير سبيل الدين ومدار غير مداره، فانتهت الأمة بقيادة هؤلاء إلى ما ترون وتشهدون، وليس

ما ترون وتشهدون بالذي يرضاه الله ودينه، أو ترتضيه الحياة الشريفة...."[26].

وعلى عالم الدين في نظر الإبراهيمي أن يستلهم مؤهلات القيادة من الإسلام، ففي"الإسلام القوة والرحمة تا، والعدل والحكمة، والصدق والنصيحة"[27]. وفي رسالته أوعز الإبراهيمي التهلهل الثقافي للشباب المسلم ونفوره من الثقافة الإسلامية وشدة تعلقه بمغريات الحضارة الغربية إلى ضعف الكتب والمناهج وأساليب البحث وطرق التربية في المعاهد الإسلامية، وفي هذا يقول: "...ومن الكذب على الله وعلى الحق أن نزعم أن الكتب التي ندرسها، والمناهج التي نسلكها تحقق المعنى العالي للثقافة الإسلامية..." [28]. كما أكدّ للحاضرين ضرورة مناقشة أوضاع "منابع الثقافة الإسلامية" ومعاهدها كالأزهر والقرويين ومعاهد الشام والعراق والهند، لأنها في نظره في حاجة ماسة إلى الإصلاح.

وبهذا يكون الإبراهيمي قد شارك علماء الزيتونة في النقاش الدائر حول كيفية إصلاح الزيتونة ومناهج التعليم في تونس لكي تصبح قادرة على مواجهة التحديات الراهنة، بإمكانها التصدي لمخططات وأهداف المدرسة الاستعمارية التي كانت تعمل جاهدة للقضاء على التعليم العربي الإسلامي سواء في الجزائر أو في تونس، وتخلق ثلة من أشباه المثقفين أو "المخلسين ثقافيا" (IntellectuelsMétis-) كما يسميهم المؤرخ والفيلسوف الفرنسي "إ. قوتي"(Emile Félix Gautier)[29]. كما أن الإبراهيمي كان يدرك أن إصلاح الزيتونة يهم كذلك الجزائر باعتبار تبعية معهد ابن باديس للزيتونة، وكذلك حركة الإصلاح الجزائري كانت في تلك الفترة تعتمد أساسا على خرجي الزيتونة.

وما يجسد صدق عاطفة الإبراهيمي اتجاه تونس وشعبها وزعمائها ما أصابه من أسى جراء وفاة المناضل "محمد المنصف"الذي وصل إلى العرش سنة في جوان 1942م وتقدم ببرنامج إصلاحات انبثقت عنه حكومة وطنية برئاسة " محمد شنيق"، ونتيجة مواقفه الجريئة نفته السلطات الفرنسية إلى الجزائر في ماي 1943م (الأغواط ثم تنس) ثم إلى "بّو" جنوب فرنسا حيث وافته المنية هناك سنة 1948م[30].

وقد عبّر الإبراهيمي عن حزنه وبقية الجزائريين في برقية التعزية التي بعث بها إلى نجل الفقيد "محمد الرؤوف" وإخوته في تونس، وأهم ما جاء فيها: "إن وفاة صاحب الجلالة سيدي محمد المنصف كارثة عامة يشارككم في الحزن عليها المسلمون عموما وسكان شمال إفريقيا خصوصا....إنني باسمي وباسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومن ورائها الأمة الجزائرية أعرب لكم عن الأسف العميق لهذه المصيبة، وأتقدم إليكم وإلى الأمة التونسية بالتعزية الخالصة"[31].

كما خصص الإبراهيمي مقالاً رثائيا نشره في البصائر بعنوان "دمعة على المنصف" يبين فيه مدى فاجعته وبقية الجزائريين في"مصاب تونس العزيزة في مناط أملها، بل في نياط قلبها".ومما قاله: "...لو مات المنصف بالأغواط، لطافت بجثمانه عدة أشواط، ولذهبت فيه مذهب العرب في ((ذات أنواط))، ولغسلته بالعبرات المفسوحة، وكفنته بألفاف القلوب، ودفنته في مستقر العقيدة والواجب من نفوسها.ولو مات (بتنس) لتاهت فخرا على الثغور، وباهت بيوم موته أيامها في غبرات لعصور ومحت بهذه المنقبة جميع ما وسمها به الشعراء من شين، ووصموها من نقص.ولو مات بأي بقعة من أرض الجزائر لكانت هي تونس نظرة واخضرارا، ولاكتسبت الجزائر بجميع أقطارها

شرفا ممن مات ميتة الشرف فيها، ولقبست معاني عالية من الفداء والتضحية بعد عهدها، ولضممتها نفحة ساطعة من عز الإمارة حرمتها الأنوف الشم من أبنائها منذ عهد بعيد.أي والله لو مات المنصف في الجزائر لمات في وطنه وبين أهله، وفي أمة وفية متعطشة للعّز والسيادة مستشرفة إلى حيث تنقطع علائق الطموح، ولا يقل تقديرها للعظماء أمثال الفقيد عن تقدير أختها تونس لهم، ولا يقصر فهمها لمعاني العظمة من الرجال عن فهم أختها تونس لها، ولكنه مات (ببّو) في دار غير داره ووطن غير وطنه، وناس غير ناسه..."[32] .واعتبر الإبراهيمي أن وفاة المنصف كانت وفاة العظماء، فموته كانت حياة لأمته "فإن كانت في الغربة زادت جلالا وجمالا، فإن كانت في سبيل الوطن كانت جلالا، فإن صحبها سلب الملك والعز كانت حلية وكمالا، وكل ذلك اجتمع في موت المنصف".

وقد أدان الإبراهيمي بشدة الحكومة الاستعمارية على اغتيال النقابي التونسي "فرحات حشاد"، فمن القاهرة أرسل مجموعة من البرقيات لكل من الاتحاد العام التونسي للشغل، باي تونس، الأستاذين صالح بن يوسف ومحمد بدرة في نيويورك، عبر فيها عن ألمه الشديد جراء هذه العملية التي وصفها "بالجريمة الفظيعة"، وما جاء في برقيته الموجهة للاتحاد العام التونسي للشغل: "...ونحن نقاسمكم آمالكم وآلامكم، وقضيتكم قضيتنا، وتقبلوا باسم الشعب الجزائري أحر التعازي"[33].

كما حاول الإبراهيمي أن يجعل من هذه القضية قضية دولية، وذلك من خلال مراسلته للأمين العام للأمم المتحدة، موضحا له بأن الشعب الجزائري يطالب الأمم المتحدة بالتحرك من أجل وضع حد للممارسات الوحشية التي ترتكبها الإدارة الاستعمارية والتي بدورها تهدد السلام والأمن

الدوليين. وراسل وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية السيد "فوستر دالّلس" يلفت نظره إلى الأعمال الشنيعة للمستعمر الفرنسي التي باتت تهدد السلام العالمي. وفي برقيته إلى اتحاد نقبات العمال الأمريكي ناشد الإبراهيمي العمال الأمريكيين بالتضامن مع عمال تونس، وأن يلفتوا نظر حكومتهم إلى ما يحدث في تونس.

واستنكر كذلك عملية نفي الزعيم التونسي "الحبيب بورقيبة"، وهذا من خلال البرقية التي وجهها إلى سفير فرنسا بالقاهرة التي أعرب له فيها عن استيائه العميق من "المعاملة القاسية التي يعامل بها الزعيم بورقيبة، لا لشيء إلا لأنه يطالب بحقوق بلاده".

إن اهتمام الإبراهيمي بالقضية التونسية، وعلاقته الوطيدة بعلماء تونس، جعلت له مكانة مرموقة في نفوس التونسيين، ويظهر هذا من خلال احتفاء علماء الزيتونة بالإبراهيمي لما حلّ عليهم ضيفا من مصر يوم 27جوان 1961م، حيث بادر أحباؤه إلى إقامة حفل تكريمي على شرفه، وقد ألقى الإبراهيمي على مسامع الحاضرين كلمة تضمنت نصائح عامة للشباب والدعاء للثورة الجزائرية، كما شكر الشعب التونسي على مساعدته للثورة الجزائرية وإيوائهم للثوار[34].

ب- الإبراهيمي والقضية الليبية:

لقد تحركت كل مشاعر المسلمين مشرقا ومغربا نتيجة الغزو الإيطالي لليبيا سنة 1911م، بما في ذلك الجزائريين الذين هبوّا لنجدة إخوانهم بشتى الطرق والوسائل كجمع التبرعات ومقاطعة المتوجات الإيطالية وغيرها، كما أن النخبة الجزائرية وقفت بقلمها ضد هذا الغزو تشحذ همم المسلمين خاصة العثمانيين للتصدي لهذا الغزو، وإن كان عمر بن قدور الجزائري (1886-

1931م) من رواد الصحافة الجزائريين الأوائل الذين وقفوا بقلمهم ضد الاستعمار الإيطالي قبل الحرب العالمية الأولى[35]، فإننا نجد الشيخ الإبراهيمي بعد الحرب العالمية الثانية من أهم الشخصيات الإصلاحية التي كانت تتابع عن كثب تطورات القضية الليبية بعد الحرب العالمية الثانية (1939-1945م)، خاصة بعد الخروج النهائي لإيطاليا من ليبيا وتقسيم هذه الأخيرة إلى ثلاث مقاطعات إدارية تحت إدارة كل من بريطانيا وفرنسا[36] .

وقد أفصح الإبراهيمي عن شدة تعلق المسلمين عامة والشمال الإفريقيين خاصة بليبيا وذلك نظرا لدلالاتها التاريخية باعتبارها كانت حسب تعبيره "مجرى عوالي الفاتحين من أسلافنا، ومجرى سوابقهم إلى هذا الشمال يحملون إليه التوحيد والحكمة والسلام، فعلى إثرها مرّ عقبة والمهاجر وحسان ومن بعدهم موسى وطارق وإدريس وعبد الرحمن..."[37].

وفي نظر الإبراهيمي أن ما آلت إليه ليبيا بعد الحرب العالمية الثانية وضع خطير و"امتحان عسير" تتخلله الأطماع الأجنبية البريطانية والفرنسية وحتى الأمريكية، ولا يمكن لليبيين أن يخرجوا من هذا المأزق إلا بوحدة الصف، والحذر الشديد، والإيمان العميق بقضيتهم، لأن قبل الحرب كان الليبيون يواجهون عدوا واحداً بينما اليوم يواجهون "ثلاثة أعداء متشاكسي المصالح، متباين المطامع، متظاهرين بالتقوى والعدل، والنصيحة الرشيدة للمستضعفين، ولكنهم متفقين على الاستغلال لا على الاستقلال..."[38].

ودليل ذلك –حسبه- أن الحلفاء وقعوا على قرار جمعية الأمم المتحدة سنة 1950م الذي نص على استقال ليبيا مكرهين أمام ضغط الدول المستضعفة[39]، كما أنهم أرجأوا تنفيذه إلى غاية 1952م حتى يتسنى لهم تثبيت نفوذهم في ليبيا التي جنى عليها موقعها الاستراتيجي من البحر

الأبيض المتوسط ومن الصحراء وجعلها عرضة "لأعين الطامعين" على حد تعبير الإبراهيمي[40].

وقد حث الإبراهيمي الليبيين على ضرورة التصدي لما يحاك ضدهم من مخططات أجنبية، وكذلك الوقوف في وجه مرضى النفوس من أبناء الوطن الذين وصفهم "بأعوان التفريق، وأعوان التحريق" ويقول الإبراهيمي في هؤلاء: "... وهنا أصل البلاء، وهنا منبت العلة، وهنا –فقط فقط– جرثومة الطاعون، وهنا العدو الحقيقي فاحذروه..."[41]

كما أعاب الإبراهيمي على الليبيين وعلى كل الشعوب المستعمرة استعمال مصطلح "المطالبة بالاستقلال" لأن الاستقلال في نظره "يؤخذ ولا يعطى" وأنه "جنة لا يعبَرُ إليها إلاّ على جسر من الضحايا"[42].ففي مقال "ليبيا ماذا يراد بها ؟" أكدّ الإبراهيمي كلمة ((طلب الاستقلال)) كلمة خاطئة أملاها على الشعوب المستعمرة الضعف والعجز، وهي في معناها الحقيقي "طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه، ويقول الإبراهيمي أنه: "...لو كان من طبيعة الغاصب السالب أن يرّد المغصوب – فيأةً إلى الرشد، وإنابة إلى الله– لرّده من غير طلب، ولا رفع دعوى، ولا إقامة دليل...." وتعجب الإبراهيمي من تعيش هذه الكلمة "الجوفاء" مع كلمة "عبقرية تضارها ونناقضها وهي أن ((أن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى)). وشروط الاستقلال في نظر الإبراهيمي هي: "الإيمان به مع التصميم، ثم العمل له مع الإسرار، ثم المحافظة عليه بعد تحصيله..."[43].والجدير بالذكر هنا أن مصطلح الاستقلال كان واردا في أدبيات التيار الإصلاحي ولدى قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأن عملهم إبان هذه الفترة من تاريخ الجزائر كان يندرج ضمن

عملية التحضير له، وهذا عكس ما تشير إليه بعض الكتابات التاريخية التي تذهب إلى أن برنامج التيار الإصلاحي وأهدافه كانت غير واضحة".

وفي اعتقاد الإبراهيمي أن اعتراف مجلس الأمن باستقلال ليبيا هو "ثمرة من ثمرات الجهاد المتواصل، من ذلك الشعب الذي نقص الاستعمار عدده وأمواله، ولم ينقص اعتداده بنفسه، وإيمانه بحقه...".كما أنه لم يغفل دور الظروف الدولية السائدة آنذاك - المتمثلة في التجاذب بين الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي في إطار الحرب الباردة حول مناطق النفوذ- في صدور قرار مجلس الأمن، فهدف الغرب من قرار الاستقلال هذا ليس حباً في ليبيا وإنما من أجل إبعاد مطامع الإتحاد السوفييتي عن البحر والصحراء ثم تقسيمها إلى مناطق نفوذ بين الدول الغربية، ما كان تأجيل الإعلان عن الاستقلال إلا عملا لهذا الهدف.

لذلك حثّ الليبيين على إقامة سد منيع أمام هذه الأطماع، وأن يعلن الجميع أن "... هذا الوطن واحد لا يقبل التقسيم، وأن أبناءه وحدة لا تقبل التجزئة، وأنهم يريدون حياة حرة كريمة...". وأن يحاربوا داء التفرق التناكر لأنه داء المسلمين جميعاً وبسببه تقسم العرب إلى إمارات ودويلات، وأصبحوا فريسة سهلة للقوى الأجنبية، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: "... أصل دائنا التفرق والخلاف...ومن الخلاف تشعبت شعب تلتقي معه في الأثر والنتيجة والشر والضر، والطعم المّر...". فعلى الليبيين أن يكونوا قدوة في وحدة الصّف والتماسك للشعوب المستعمرة المتطلعة إلى نيل الاستقلال، فحّذرهم الإبراهيمي أن "يكونوا قدوة في الهزيمة، ومثالا لخيبة الأمل"[44].

ج- علاقة الإبراهيمي بالحركة الإصلاحية في المغرب الأقصى:

لقد كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين صيتا شاسع في المغرب الأقصى، وذلك نتيجة تعاليم العلماء المغاربة الذين عرفّوا بالجمعية ودورها في محاربة الجمود الفكري، من بينهم "شعيب الدّكالي" (ت1937م) الذي وصفه ابن باديس " بمجد الأفارقة والمغرب"[44]. كما كان للصحافة الإصلاحية دورا كبيرا في تمتين أواصر التعاون العلمي والفكري بين علماء الجزائر والمغرب الأقصى، مثل جريدة "الشهاب" والبصائر" التي كانت منبرا حرا للكثير من المثقفين المغاربة أمثال: علال الفاسي، محمد غازي، محمد مكي الناصري، محمد القري وغيرهم[45] .

أما الإبراهيمي، فحسب ما يرويه محمد إبراهيم الكتاني [46] في جريدة العلم المغربية، "كان يطرب كثيرا لسماع أخبار المغرب وأخبار عبد الكريم الخطابي، كما كان يطرب كثيرا لسماع النشيد المغربي (في ثنايا العجاج)"[47]. وقد ربطت الإبراهيمي علاقات صداقة مع كثير من علماء الإصلاح في المغرب مثل "الكتاني" الذي كان في اتصال دائم مع الإبراهيمي، والذي قال فيه : " للأستاذ البحّاثة العالم السلفي الشيخ محمد إبراهيم الكتاني أحد علماء المغرب الأفذاذ المستقلين – مكانة ممتازة في نفوس جمعية العلماء وصلة روحية قوية بهم من أيام المرحوم الأستاذ الرئيس عبد الحميد ابن باديس، والكتاني من المعجبين بحركة جمعية العلماء الإصلاحية والمتتبعين لأطوارها ومن العاملين على ربط الحركات السلفية بعضها ببعض..."[48].

وأشاد الإبراهيمي بالأعمال الخيرية التي يقدمها رجل الأعمال "المحسن محمد خطاب الفرقاني"[49]، وكذلك خدمته للمشروع النهضوي في المغرب الأقصى وفي الجزائر، ومما ذكره الإبراهيمي عنه: أنه "عصامي التكوين ورجل

إحسان، وله شغف لمناصرة أنصار الإصلاح ونشر العلم رغم قلة علمه"، وذكر الإبراهيمي أنه يقدم الدعاية له لكي يكون أسوة لأهل المال والثروة في سبيل الإصلاح[50].

كما كان معجبا بالأستاذ "محمد العربي العلوي" الذي قال عنه :"...الأستاذ الأكبر الشيخ محمد العربي العلوي، إمام سلفي وعالم مستقل واجتماعي جامع، وهو – في نظرنا- أحق في رتبة الإمامة من كثير ممن خلع عليهم المؤرخون هذا اللقب. ونحن في أخص الصفات التي تربطنا به وهي السلفية والإصلاح نجاوز درجة الإعجاب به إلى الفخر والتعاظم"[51] .

ومثلما حارب الإبراهيمي الطرقية ورجالها في الجزائر، فإنه حاربها في المغرب الأقصى كذلك وتصدى لأكبر رجالتها في المغرب ألا وهو "عبد الحي الكتاني"، فلخص صفاته في بيت شعري:

شعوذة تخطر في حجلين * وفتنة تمشى على رجلين.**

فالكتاني في نظر الإبراهيمي هو ذلك الاسم المركب المشتمل على مجموعة من العناصر "منها العلم ومنها الظلم ومنها الحق ومنها الباطل، وأكثرها الشر والفساد في الأرض"[52]، وأنه أداة طيعة في يد الاستعمار يحركه كيف ما يشاء لإثارة الفتنة وتفريق الصفوف، "وما يشاء الاستعمار إخماد حركة، إلا كانت على يديه البركة، وما يشاء التشغيب على العاملين للصلاح، والمطالبين بالإصلاح، إلا رماهم منه بالدّاهية النكراء والصيلم الصلعاء"، فهو في حقده على العلماء السلفيين مثل العقرب "لا تلدغ إلا من يتحرك" [53].

وما زاد من خطورة الرجل امتداد نفوذه إلى جزائر وتونس، إذ حاول أن يجد ميدانا جديدا لبث سمومه، ليحقق ما عجزت عنه الحكومة

الاستعمارية "من استئلاف النافر، واستنزال العاق، وليوحد بين الأقطار الثلاثة ولكن بالتفريق، ولينقذها من البحر ولكن بالتغريق"[54].

ورغم موقف الإبراهيمي المعادي للنظام الملكي، الذي يراه نظام استبداد واستعباد، فإنه كان يستثني منه ملك الملك المغربي "السلطان محمد بن يوسف" (محمد الخامس) الذي التقاه في باريس بفرنسا سنة 1950 وأعجب بتواضعه وانشغاله بقضايا المسلمين.

وفي البصائر نشر الإبراهيمي قصيدة شجية يثني فيها على خصال السلطان ومواقفه "المشرفة المجيدة في نصر الحق على الباطل، ودحض البدعة بالسنة، وفي الدفاع حقوق وطنه، وفي سيرته النبيلة التي هي مضرب المثل في ملوك الإسلام"[55]. وقد وصفه ب:"حر الفكر، مستنير البصيرة، موقوف المواهب على خدمة الإسلام وإصلاح المسلمين...سلفي العقيدة والتعبد، قديم في دينه جديد في دنياه."[56]

وقد وقع خبر نفي محمد الخامس على جمعية العلماء المسلمين وعلى الشيخ الإبراهيمي على وجه الخصوص كالصاعقة، فمن القاهرة أصدر بيانا باسم الجمعية يدين في بالشدة إجراء الحكومة الاستعمارية ضد الملك الشرعي، وأن عملها هذا يعد تعديا صارخا لمعاهدة الحماية سنة 1912م، وأهم ما جاء في البيان: "...إن أعمال فرنسا وتصرفاتها مع السلطان أثار غصب العالم الإسلامي كله على فرنسا وحركت فيهم روح الانتقام، لأن كل ما تفعله حكومتهم ضد السلطان يعد تعديا شنيعا"[58]، كما دعا الشعب المغربي إلى ضرورة الالتفاف حول ملكهم المخلوع وعد القبول بالملك الذي ستعينه فرنسا[59].

د- دعوة الإبراهيمي إلى الوحدة المغاربية:

إن المتتبع لكتابات الإبراهيمي يستشف مدى تعلقه بالوحدة المغاربية، وإيمانه العميق بوحدة الشمال الإفريقي الذي تجمعه اللغة والدين والتاريخ والوحدة الجغرافية، وما ينم عن تجذر هذه النزعة الوحدوية في فكر البشير الإبراهيمي تكريسه لقلمه لمناصرة قضايا المغرب العربي التي شاركها همومها وشاطرها أحزانها، والتصدي لمخططات الاستعمار والمتحالفين معه من أبناء المنطقة.

فكان الإبراهيمي يعتبر أن المغرب العربي وحدة لا تتجزأ، وأن ما أصابها من ضعف وهوان ثم استعمار كان نتيجة التفرق وعدم الاتحاد وهذا ما وضحه بقوله: "...لو كان أجدادنا على شيء من فهم معنى التضامن الإسلامي لما ترك المراكشي والتونسي الجزائر تتخبط وحدها في المقاومة، لنبهتهم ضمائرهم أن هذا الغول إن تغذى بالجزائر فسيتعشى بتونس ومراكش، ولكنه كان مستيقظا وكانوا نائمين حتى انتهى الأمر إلى الغاية المحزنة..."[60].

ويعيب الإبراهيمي على أبناء المغرب العربي أن يتحججوا على ضعفهم وعدم اتحادهم بعامل الاستعمار وآثاره، فتعللهم بذلك في نظره عجز وضعف، وأنهم بذلك يزيدون المستعمر قوة وجبروتاً. فالمسؤولية الكاملة يتحملها أبناء المغرب العربي، ويتساءل الإبراهيمي: "ففي أيديهم السلاح الذي يستطعون به التخلص من الاستعمار لو أحسنوا استعماله، ففي إمكانهم أن يتحدوا فلماذا لم يتحدّوا؟"[61].

وما يفرض حتمية الإتحاد في نظر الإبراهيمي وجود العدو الاستعماري الواحد الذي ينام ملء جفونه لإدراكه التام بما عليه المغاربة من

تخاذل وفي ذلك يقول الإبراهيمي: "...إن عدونا واحد فلنلقه في ميدان واحد برأي واحد وبصف واحد، ولو فعلنا وأخلصنا لسعت إلينا الحرية ركضاً...أزعجوه وأقضوا مضاجعه بإتحاد لا يتزعزع وعزائم لا تتزلزل وأخلاق يذعن لها الجبابرة، ويومئذ تجدون الاستعمار وقوته وأساليبه وتخيلاتكم فيه كلها باطل، وتجدون منها جميعا ما يجدع الخائف من الغول الذي لا حقيقة له..."[62].

2- قضايا المشرق العربي والعالم الإسلامي:

إن رحلة الإبراهيمي إلى المشرق مرتين، الأولى من أجل الدراسة دامت من (1912-1922) والثانية منذ سنة 1952م، جعلته يعاين عن قرب أوضاع المشرق العربي، ويعايش النهضة والتيارات الفكرية والأدبية السائدة آنذاك. فحسب الباحث "علي مراد" فإن دراسة الإبراهيمي في المدينة المنورة جعلته يكتشف فكر "جمال الدين وتلميذه ومحمد عبده"، كما أن إقامته في دمشق منذ 1917م وتدريسه في المدرسة "السلطانية" وإلقائه للدروس في مسجد "الأمويين" مكنته من "الارتباط بالعناصر الأكثر استلهاما لفكر رشيد رضا"[63]. كما كان له بعض النشاطات السياسية حيث انظم إلى الكثير من النوادي والجمعيات العربية الداعية إلى الوحدة العربية والإسلامية مثل "النادي العربي" الذي أسسه أحد قادة زعماء الثورة العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين الدكتور "عبد الرحمن سهبندر"[64].

أما رحلته الثانية فكانت سنة 1952، حيث أقام في القاهرة أين كان يلقي دروساً في المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين، ثم توجه إلى باكستان لحضور أشغال "المؤتمر الإسلامي" المزمع عقده، وهنالك التقى بالكثير من الشخصيات والوجوه الإسلامية البارزة على رأسهم المفتي وزعيم المقاومة

الفلسطينية "محمد الأمين الحسني"، وبعد حوالي 3أشهر قضاها الشيخ في بكستان شدّ الرحال إلى العراق ثم توجه إلى المملكة العربية السعودية ثم عاد إلى مصر من جديد[65]، فكانت نشاطاته في مصر أكثر حيوية من خلال كتاباته واتصالاته المختلفة. فرحلتي الإبراهيمي وعلاقاته برواد الفكر والسياسة ساهمت بقسط كبير في نحت شخصيته وجعلته يلم بكل التطورات الحاصلة في العالم الإسلامي ويعالجها معالجة الواعي الخبير، ففيما تظهر اهتماماته يا ترى؟.

أ- الإبراهيمي والقضية الفلسطينية:

لقد احتلت القضية الفلسطينية حيزاً كبيرا من اهتمامات رواد النهضة الجزائرية والمصلحون الجزائريون وذلك منذ صدور وعد بلفور 2نوفمبر 1917م الذي نص على منح أرض فلسطين لليهود، ولعّل من أبرز الأقلام التي تناولت القضية من كل أوجهها وأبعادها الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان ينظر إليها بوجهة دينية وقومية وسياسية، فدينيا هي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم، أما قوميا ففلسطين دولة عربية وقعت تحت مخالب الاستعمار الغربي وهذا ما نلمسه في قوله:"...فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون من وطني العربي الصغير، وفي كل عنق كل مسلم جزائري لك – يا فلسطين- حق واجب الأداء، وذمام متأكد الرعاية..."[66]، أما سياسيا فالإبراهيمي كان يدرك الأهداف الإستراتجية التي حدت بالإنجليز لزرع هذا السرطان في قلب الأمة العربية والإسلامية والمتمثلة أساسا في استكمال المشروع الاستعماري الهادف إلى القضاء على الأمة الإسلامية، ومنع الوحدة العربية باعتبار أن فلسطين حلقة وصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

وقد فند الإبراهيمي دعاوى اليهود الباطلة في أحقية أرض فلسطين، فأرض فلسطين أرض إسلامية منذ أن طهرها المسلمون من الرومان ثم من الإفرنج، ويتساءل "...فما بال هذه الطائفة الصهيونية[67] اليوم تنكر الحق، وتتجاهل الحقيقة وتجحد الفضل، وتكفر النعمة ...ما بال هذه الطائفة تدعي ما ليس لها بحق، وتطوي عشرات القرون لتصل –بسفاهتها– وعد موسى بوعد بلفور...؟"[67].

فالعرب المسلمون في نظر الإبراهيمي هم من حرروا فلسطين ودفعوا عنها الغارات الصليبية، وعاشوا فيها أكثر من ثلاثة عشر قرناً، أما بنو إسرائيل فعاشوا تحت راية الإسلام آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وعلى دينهم. وأساس المشكل هم الإنجليز الذين منحوا اليهود وعد بلفور وضمنوا لهم أن يكون تحت ظل حماية الدولة البريطانية، وبعد "ذلك استطاعوا أن يدخلوا مهاجرين ثم يصبحوا سادة مالكين"[68]. ويعتقد الإبراهيمي أنه لولا البأس الحربي لبريطانيا، والنفوذ المالي للصهاينة، وعرضت القضية على مجلس عادل "وعقل لا يستهويه بريق الذهب، ولا يرهبه بريق السيوف، لقال القانون: أن ثلاثة عشر قرناً كافية للتملك بحق الحيازة، وقال الدين: إن حق الناس بمدافن الأنبياء هم الذين يؤمنون بجميع الأنبياء، وقال التاريخ: إن العرب لم ينتزعوا فلسطين من اليهود، ولم يهدموا لهم فيها دولة قائمة، ولا ثلُّوا لهم عرشا مرفوعاً، وإنما انتزعوها من الرومان، فهم أحق بها من كل إنسان..."[69].

وأكد الإبراهيمي أن الحركة الصهيونية هي حركة عنصرية استعمارية، تهدف إلى جمع شتات اليهود في وطن "تسميه قولا فلسطين"، وما يفرق هذه الحركة عن باقي الحركات الاستعمارية، كونها تستعمل نفوذها المالي لشراء

السلاح والذمم "تشتري به السكوت والنطق، وتشتري به الحكومات والشعوب، وتعتمد عليه وعلى الحيلة والمكر والتباكي والتصاغر في حينه، وعلى التنمر والإرهاب في فرصته"[70].

كما دعا الإبراهيمي العرب والمسلمين إلى الإتحاد للتصدي لمخططات الغرب واليهود، حيث قال: ..."إن الصهيونية وأنصارها مصممون، فقابلوا التصميم بتصميم أقوى منه، وقابلوا الاتحاد باتحاد أمنتن منه.

وكونوا حائطا لا صدع فيه وصفاً لا يُرقَّع بالكُسالى"[71].

وعبر الإبراهيمي عن رفضه لقرار تقسيم فلسطين الصادر عام 1947 عن مجلس الأمم المتحدة، فإصداره كان مكيدة عظيمة، لأن أعضاء المجلس لم يذعنوا لأصحاب الحق، وانساقوا وراء أهل الباطل الذين يحملون " الإبهام المضللة، والكيد المبيت، والمكر الخفي، والدعاوي المقطوعة من أدلتها، ومع كل أولئك الرنين الساحر يستهوون به الأفئدة...". فكان تقسيم فلسطين في نظر الإبراهيمي "تحديا للعرب وحقهم، وللمسلمين ودينهم"، إذ أسفر على إعطاء اليهود الأراضي الخصبة والجهات ذات المواقع الهامة المتصلة بالعالم، بينما كان حظ العرب الجهات الرملية والجبال الوعرة، بينما بيت المقدس الذي وضع تحت إدارة الأمم المتحدة فقد خسره الطرفان، "فلا اليهود به فازوا، ولا العرب إياه أحرزوا"[72].

ورغم الستار الحديدي الذي أسدلته الإدارة الفرنسية على الجزائريين لقطع صلاتهم مع العالم العربي والإسلامي إلا أن الجمعية وعلى رأسها البشير الإبراهيمي، شاركت إخوانها العرب في تصديهم للإعلان عن دولة إسرائيل، فبعد اتصالات حثيثة أجراها الشيخ الطيب العقبي مع رجال

الجمعية والأطراف السياسية المشكلة للحركة الوطنية أتفق على تأسيس "الهيئة العليا لإغاثة فلسطين" ستة 1984، واختير البشير الإبراهيمي رئيسا لها[73] .

وقد كان دور الهيئة سياسيا تعبويا، فسياسيا تعمل على مراسلة المنظمات الإقليمية والدولية، وكذا الحكومات والدول، مثل مراسلة الجامعة العربية والأمم المتحدة، استنكارا على قيام دولة إسرائيل. أما تعبويا فيتمثل في توعية الجماهير بالقضية الفلسطينية، وفضح دسائس اليهود والاستعمار الغربي في المنطقة العربية. كما عملت اللجنة على جمع أموال التبرعات لصالح فلسطين، فيذكر الإبراهيمي: "...جمعت عدة ملايين من الفرنكات، وأبلغناها إلى مأمنها في فلسطين، واستلمنا الشهادة القاطعة على وصولها"[74].

وبذلك تكون مواقف البشير الإبراهيمي قد عبرت بعمق عن مواقف الجزائريين الثابتة من القضية الفلسطينية، سيما وأن الشيخ كان في مقالاته العديدة يتكلم باسم كامل الشعب الجزائري "يا فلسطين إن في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جروحاً دامية، وفي جفن كل مسلم جزائري في محنتك عبرات هامية"[75].

ب-مكانة مصر عند الإبراهيمي:

إن هجرة الإبراهيمي الأولى والثانية إلى المشرق، ومكوثه طويلا في أرض الكنانة، ومجالسته لرواد الفكر والأدب من أبنائها، ومعايشته للجوي النهضوي الذي أرسى محمد عبده دعائمه فيها، جعلتها تحضى بمكانة كبيرة عند الشيخ الإبراهيمي الذي قال عنها: " إن مصر هي قلب العالم الإسلامي، والبرزخ الذي تهوي إليه الأفئدة، ويلتقي فيه الأخ بأخيه حرا طليقا، وهي كذلك نبع من منابع الثقافة ومهجر لأبنائها الطالبين للعلم، وفيها عددا وافرا من أبناء الجزائر..."[76].

كما كان الإبراهيمي يشيد بالدور الذي يلعبه "الأزهر" في النهضة العلمية، وكذا في الثورة على الأنظمة الفاسدة، ففي مقال مطول بعنوان " أثر الأزهر في النهضة المصرية"، يبين الإبراهيمي دور الأزر في التصدي للغزوات الأجنبية من "سان لويس" إلى "نابليون"، فكان الأزهر المئذنة التي يسمع منها الناس كلمة الحق،"فإذا قالها كانت الفاصلة"، وما أحوج مصر والأزهر إلى علماء ربانيون تكون كلمتهم في السلم هادية إلى الصلاح وفي الحرب هادية إلى النصر، ولكن مصر لا تبلغ هذه الأمنية في نظر الإبراهيمي "إلا إذا عاد في الأزهر سلطان العلماء، إلى ما كان عليه في أيام (سلطان العلماء)، فقد أصبح علماء الدين تابعين لا متبوعين، وهانوا على أنفسهم وهانوا على الله وعلى الناس"[77].

ويرى الإبراهيمي أن فضل نهضة مصر يعود إلى الأزهر، فلولا تلاميذ الأزهر يقول: "...لما راج في مصر رأي، ولا ثبتت عقيدة، وإن زعموا لها المزاعم، وعقدوا عليها صلاح الدين والدنيا"[78].

وقد أيد البشير الإبراهيمي مطالب الحركة الوطنية المصرية، والمتمثلة في إخلاء قناة السويس من التواجد الإنجليزي، العمل على تحقيق الوحدة بين مصر والسودان، وقد أكد الإبراهيمي للحكومة المصرية بأن جمعية العلماء المسلمين تأيد هذه المطالب الشرعية[79].

كما بارك العمليات الفدائية التي قام بها المصريون ضد التواجد الإنجليزي، وأسفرت على سقوط عدة شهداء، لذلك صلى الإبراهيمي في باريس صلاة الغائب مع المهجرين العرب على أرواح الشهداء وهذا بطلب من وزير خارجية مصر محمد صالح خير الدين[80]. وظل الإبراهيمي يراقب عن كثب التطورات في مصر، خاصة بعد نجاح الثورة المصرية (ثورة الضباط

الأحرار) في جويلية 1952م، ووصول جمال عبد الناصر للسلطة سنة 1954م فأبدى الإبراهيمي إعجابه بسياسة عبد الناصر القومية ومساندته للثورة الجزائرية[81] وكل حركات التحرر في العالم العربي والإسلامي[82].

ج- الجامعة الإسلامية في أدبيات الإبراهيمي:

لقد شغل موضوع الوحدة العربية والإسلامية حيزا كبيرا من اهتمامات الشيخ البشير الإبراهيمي، فكان ينظر إليها من زاويتين، الزاوية الأولى دينية، انطلاقا من كون أن المؤمنين إخوة وأمة واحدة وفق النص القرآني. أما الزاوية الثانية فهي سياسية بهدف تكوين جبهة إسلامية واحدة قادرة على التصدي للخطر المحدق بالأمة الإسلامية من كل جانب منها التكالب الغربي الاستعماري على الأقطار الإسلامية. والجامعة الإسلامية في نظره هي الرابطة الروحية التي لا تضيق بأحد من أبناء الأمة الإسلامية، النابذة لفكرة القطرية الضيقة والوطنيات المحدودة التي كانت حسب تعبيره "منبع شقاء المسلمين ومبعث بلائهم"[83]. فالجامعة الإسلامية في اعتقاده تجمع كل ما أطلق عليه "العالم الإسلامي" الذي يشمل كل مكان تقام فيه "شعائر الإسلام، مهما كان بعيدا أو قل عدد أهله"[84].

فالقومية الإسلامية في عند هي الرابطة التي تربط جميع المسلمين دون أي اعتبار جنسي أو لغوي أو عرقي، فهي رابطة تربط المسلم بأخيه المسلم ترتكز أساسا على الدين (الإسلام)، وذلكلما له من قوة روحانية قادرة على أن "تتغلب على كل عوامل الكيد للمسلمين، والتشتيت لصفوفهم والتبعيد بين قلوبهم، بتشجيع الخلافات المذهبية والدينية والدنيوية بينهم، وباصطناع الحواجز والحدود الجغرافية، التي جزأتهم إلى أقاليم ودويلات، والحواجز اللغوية من خلال الإكثار من اللغات والرطنات"[85].

وما يفرض حتمية الجامعة الإسلامية في نظر الإبراهيمي الواقع المخزي للمسلمين الذي يتميز بالانحطاط وسيطرة الأجانب نتيجة انقسام العالم الإسلامي إلى دويلات أو "عصبيات عرقية وجنسية".فهي مفتاح لكل المشاكل التي يعاني منها العالم الإسلامي لذلك عمل الاستعمار على محاربتها، وعمل جاهدا على التفريق بين صفوف المسلمين، حتى أصبحوا أعداء لبعضهم البعض، وخرّب ضمائرهم، حتى أضحت خيانة الوطن والدين لديهم عملا محمودا يتمادحون به. ومزّق جامعتهم حتى صاروا أمما متنابذة ، تتعادى سعيا لإرضائه، وتتمادى في ذلك طمعا في التقرب منه. والتوهين لقواهم المعنوية، إلى حد أصبح فيه حالهم كحال التماثيل الخشبية التي لا ترهب ولا تخيف، ويرى الإبراهيمي أن الاستعمار نجح في ذلك لأنه وجد من المسلمين من له قابلية التجاوب مع استراتيجيته التي مهدت الطريق "لتجذر الوطنيات الضيقة المحدودة، التي زينها للمسلمين، كما يزين الشيطان للإنسان سوء عمله، وحببها إليهم كما يحبب الطبيب المزيف للمريض، تناول السم باسم الدواء. وهو الذي –المستعمر- يحرص على محاربة تلك الوطنيات في بلدانه، لأنه يدرك جيدا أنها عامل يضعف قوته، وهو ما كان يرمي إليه من خلال التشجيع عليها في البلاد الإسلامية".

وبعدما بين الإبراهيمي الأثار السلبية التي تنجر عن الاختلاف وانقسام المسلمين إلى دويلات على أساس العصبية العرقية أو اللغوية أو المذهبية، وضح كيف يمكن للمسلمين تجاوز خلافاتهم وتحقيق الأخوة بينهم، وذلك بالاعتبار بسنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي استطاع أن يؤاخي بين المهاجرين والأنصار بفضل سلطان القرآن الكريم، الذي كانت هيبته كبيرة على القلوب[86].

وفي نظر الإبراهيمي أن الفئة التي يجب أن تضطلع بدور الدعوة إلى الاتحاد والأخوة هي فئة العلماء، فإذا تقاعس أحدهم عن ذلك فقد خان الأمانة "وسيحاسب عليها يوم القيامة"، حسب تعبيره[87].وعلى الأولياء كذلك لا بد أن يغرسوا تعاليم الإسلام في نفوس الناشئة، ويعلمونهم حب الدين وحب الفضيلة، وحب العروبة والدفاع عنها. كما يستحسن للحكومات الإسلامية أن تشجع على الأسفار والرحلة بينها، حتى يقع التعارف بين أبناء الأمة الإسلامية[88]، خاصة البعثات العلمية بين الدول العربية والإسلامية فهي تنمي روابط الجامعة الإسلامية وتقضي على بذور الخلاف والشقاق التي حاول الغرب الاستعماري غرسها في أبناء الأمة من خلال مناهجه التعليمية ونظرياته العنصرية مثل نظرة الفيلسوف والمؤرخ "غوتي" الذي يزعم أن الأقطار المغربية تعاني من اللعنة الجغرافية ولم يسبق لها أن توحدت في دولة مركزية.

وفي رأي الشيخ كذلك أن توحيد أوقات الشعائر الدينية خطوة ضرورية نحو تحقيق الجامعة الإسلامية، خاصة صوم رمضان وعيد الفطر، حيث يقول: "....الأقطار الإسلامية كلها دار واحدة، فحيثما ثبتت الرؤية وعلمت على وجهها الشرعي الصحيح قامت معها الحجة على الجميع، وتعلق بها الحكم صوما وإفطارا، ولا عبرة بما هو شائع من اختلاف المطالع، فإن القواعد الفقهية تنقضه ..."[89] ، فاختلاف مواقيت الشعائر الدينية أدى إلى تشتيت كلمة المسلمين وغرس البغضاء والعداوة بينهم خاصة بين علماء الأمة، هذا ما جعل الأمم الأخرى تستخف بالأمة الإسلامية التي أصبحت فريسة سهلت المنال بتخاذلها وتناكرها، وسبب ذلك في اعتقاد الإبراهيمي غياب المرجع الديني "الذي يوحد الأمة في كل شؤونها الدينية"[90] .

الخاتمة:

مما تقد يكن أن نستنتج أن ا الشيخ البشير الإبراهيمي لم يكن إصلاحيا ووطنياً فقط، ففكره كان ذا بعد قومي بل ذا بعد إنساني عالمي، ويظهر هذا من خلال اهتمامه بجل قضايا عصره، خاصة قضايا الاستعمار وسياسته التعسفية في العالم العربي والإسلامي.وكان الإبراهيمي يعتقد أنه لا سبيل للأمة الإسلامية في النهضة إلا بواسطة التكتل والاتحاد في إطار ما يعرف بالجامعة الإسلامية، التي يرى بأنها المفتاح لكل المشاكل خاصة القضية الجزائرية، والقضية الفلسطينية التي يرجع ضياعها إلى تقاعس العرب خاصة والمسلمين عامة.

ويمكن القول كذلك أن مفهوم الإبراهيمي للقومية لم يكن مفهوما ضيقا مبني على أساس لغوي أو عرقي أو جنسي، فمفهومها عنده مرادفا لمفهوم "الجامعة الإسلامية" مثلما صورها الرواد المصلحون الأوائل أمثال "جمال الدين الأفغاني" وتلميذيه "محمد عبده" و"رشيد رضا". وقد قدم الإبراهيمي حلولا ناجعة لتحقيق ذلك من بينها تربية النشء تربية إسلامية صحيحة تجعلهم يعتزون بالانتماء للأمة العربية والإسلامية، وكذلك تشجيع الرحلات والبعثات العلمية بين أقطار العالم العربي والإسلامي، ويبدو أن طرح الإبراهيمي لفكرة البعثات العلمية كان نابع من تجربته الخاصة لما هاجر إلى المشرق مرتين وإلى باكستان سنة 1952م، حيث ساهمت هاتين الرّحلتين في صقل فكر الإبراهيمي ونحت شخصيته.

هوامش البحث:

[1]- الهادي الحسني، مواقف الإمام الإبراهيمي، المغرب العربي الكبير، ط1، مؤسسة علم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر 2007م، ص 7 .

[2]- هاجر الإبراهيمي إلى المشرق العربي سنة 1911م طلبا للعلم قاصدا المدينة المنورة التي سبقه إليها والده "الشيخ السعيد الإبراهيمي"، فمر بتونس وليبيا ثم القاهرة التي قام بها ثلاثة أشهر دوام خلالها على حضور الدروس التي كان يلقيها علماء الأزهر، ومن مصر شد الرحال إلى المدينة المنورة التي وصلها في أوائل سنة 1912م، وفيها أخذ العلوم على أيدي فطاحل علماء العالم العربي والإسلامي الذين استقر بهم المقام في المدينة المنورة من بينهم: "الشيخ عبد العزيز التونسي الوزير"، "الشيخ حسين أحمد الفيض الأبادي"، "الشيخ إبراهيم الأسكوبي"، "أحمد البنزرجي" و الشيخ "عبد الله الشنقيطي"، "محمد العمري الجزائري" وغيرهم. وفي سنة 1916م اضطر الإبراهيمي إلى مغادرة المدينة إلى الشام، وفي سنة 1920م عاد الإبراهيمي إلى الجزائر ليحمل على عاتقه إلى جانب رفيق دربه "ابن باديس" مهمة بعث النهضة في المجتمع الجزائري، ومحاربة الركود والجمود الثقافي الذي كرسته الإدارة الفرنسية وحلفاؤها الطرقيون قرابة قرن من الزمن للمزيد عن رحلة الإبراهيمي في المشرق راجع:- بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، دراسة فكرية تاريخية مقارنة، الجزء الأول، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر (مرقونة)، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009-2010م، ص 119 وما بعدها.

[3]- جريدة البصائر، 22 ماي 1936م

[4]- – محمد صالح الجابري، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، دار الحكمة، الجزائر 2007م، ص 43.

[5]- مريوش أحمد، الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية وثورة 1954م، أطروحة دكتورة دولة (مرقونة)، جامعة الجزائر، 2005-2006م،ص 188.

[6]- معهد ابن باديس: تأسس سنة 1947م بقسنطينة، وكان هذا المعهد في نظر علماء "جمعية العلماء المسلمين" بأنه "تاج لمدارسها وغرة لأعمالها، بل أعظم أعمالها خطرا و أعلاها قدرا وأكثرها نفعاً"، وقد أقبل عليه طلاب العلم والمعرفة حتى وصل عددهم ألف تلميذ. وهو مرتبط علميا بجامع الزيتونة لهدف يرمي الإبراهيمي الوصول إليه وهو توحيد التعليم في المعاهد العربية الإسلامية للكبرى في العالم العربي والإسلامي، للمزيد راجع:- بن عدة عبد المجيد، الخطاب النهضوي في الجزائر 1925- 1954م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر (مرقونة)، جامعة الجزائر، 2004-2005 ، ص ص 146- 147.

[7]- صالح الجابري، المرجع السابق، ص 29.

[8]- نفسه. نقلا عن: عبد الرحمن شيبان، مجلة الأصالة، ماي 1978، ص 88.

[9]-نفسه.

[10]- نفسه.

[11]- محد البشير الإبراهيمي، "محمد الطاهر بن عاشور وعبد الحميد بن باديس إماما النهضة العلمية في الشمال الإفريقي"، جريدة البصائر، ع44، 26جويلية 1948م.

[12]-نفسه.

[13]- خير الدين: هو مصلح تونسي، صاحب الكتاب الشهير "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، كان وزيرا في عهد المشير الثالث "الصادق باي" وبفضل جهوده في الإصلاح تم تعديل الدستور سنة 1861م وفقا لمبدأ الفصل بين السلطات، وإقامة النظام البرلماني، وتأسيس مجلس تشريعي، كما قام بتنظيم وإصلاح مناهج التعليم بالزيتونة، وأسس المدرسة الصادقية سنة 1875م لدراسة العلوم الحديثة واللغات الأجنبية، وفي عهده أرسلت البعثات العلمية نحوا فرنسا وإيطاليا وإنجلترا، انظر: - الحبيب ثامر، هذه تونس، تقديم: الرشيد أدريس، تحقيق: حمّادي الساحلي،ط1 دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص 57.

[14]- الإبراهيمي، "محمد الطاهر بن عاشور وعبد الحميد ابن باديس..."، المصدر السابق.

[15]-نفسه.

[16]–نفسه.

[17]–نفسه.

[18]–نفسه.

[19]–نفسه.

[20]–نفسه.

[21]–نفسه.

[22]– الجمعية الخلدونية : تأسست سنة 1896م من طرف "البشير صفر" وكان الهدف من تأسيسها هو إدخال الإصلاح على جامع الزيتونة،وقد لعبت هذه المؤسسة دورا كبيرا في نشر العلم والثقافة وإذكاء الروح الوطنية التونسية، للمزيد انظر: – الطاهر عبد الله ،الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة، ط2،دار المعارف، تونس،د ت، ص 33.

[23]– الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، (1940–1952م)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1997م، ص 305.

[24]–نفسه.

[25]– انظر نص الرسالة في: نفسه، ص 307 إلى 310.

[26]–نفسه.

[27]–نفسه.

[28]–نفسه.

[29]– –عبد الله حمادي، الحركة الطلابية الجزائرية 1871–1962، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، م . و .ن .ش، الجزائر 1995، ص 13.

[30]– بالقاسم محمد، الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي1910–1954م، رسالة ماجستير (مرقونة)، جامعة الجزائر، 1993–1994م،ص 279.

[31]– انظر نص البرقية في: البصائر، ع49، 13 سبتمبر 1948م.

[32]– الإبراهيمي، "دمعة على المنصف"، البصائر، ع 49، 13 سبتمبر 1948م.

[33]- أثار الإمام، ج4، ص ص 153-154.

[34]-نفسه، ج5، ص ص 268-269.

[35]- للإطلاع عن موقف بن قدور من الاستعمار الإيطالي لليبيا راجع: - قرين مولود، " مظاهر البعد القومي في فكر النخبة الجزائرية، عمر بن قدور الجزائري نموذجاً، حوليات المؤرخ، ع6، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، ديسمبر 2012، ص 189وما بعدها.

[36]- في فيفري 1943م طرد الحلفاء إيطاليا نهائيا من ليبيا، وقسمت ليبيا إلى ثلاثة مقاطعات إدارية هي: إدارة برقة، إدارة طرابلس، إدارة فزّان، وتولت بريطانيا إدارة الإقليمين الأولين، بينما عهد لفرنسا إدارة الإقليم الثالث، انظر: - شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا- تونس- الجزائر)، ط1، مكتبة الإنجلو- المصرية، القاهرة 1988م، ص 393.

[37]-نفسه، ص 442.

[38] - نفسه.

[39]- أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارين نصا على حق الشعب الليبي في تقرير مصيره وهما: قرار 21 نوفمبر 1949م و17 نوفمبر 1950م غير أن الاستقلال كان يوم 24ديسمبر 1951م بعدما أعلن الملك "محمد إدريس السنوسي" أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة، انظر: شوقي عطا الله، المرجع السابق، ص 394.

[40]- عيون البصائر، ص 443.

[41]-نفسه.

[42]-نفسه.

[43]- البصائر، ع 113، 27مارس 1950م.

[44]-نفسه.

[44]- كان يريد ابن باديس حضور تأبينية "الدّكالي" غير أن السلطات الفرنسية منعته من ذلك، انظر:- علي مراد ، الحركة الوطنية الإسلامية في الجزائر بحث في التاريخ الديني و الاجتماعي من 1925-1940، ترجمة محمد يحياتن ،دار الحكمة الجزائر 2007 م ،ص 228.

[45]–نفسه، ص 425.

[46]– ولد بفاس في أكتوبر1907م، تخرج من القرويين، له العديد من المؤلفات، انظر:- حميدي أبو بكر الصديق، قضايا المغرب العربي في اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية 1920-1954م، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، 2010-2011م، ص 328.

[47]– نفسه، نقلا عن: إبراهيم الكتاني،"الإمام الإبراهيمي"، جريدة العلم، ع1582، س6، 30-10-1951م، ص 1-2.

[48]–نفسه.

[49]– ولد بجيجل سنة 1904م، تلقى تعليمه الابتدائي في مسقط رأسه لكنه سرعان ما تخلى عن مقاعد الدراسة واتجه نحو الحياة العملية، هاجر إلى المغرب الأقصى في حدود 1920م، استطاع أن يكون ثروة كبيرة كرسها لمساعدة الفقراء والحركات الوطنية المغاربية، ربطته علاقة وطيدة بالحركة الوطنية الجزائرية خاصة بالجمعية وبأحباب البيان، للمزيد راجع: - حميدي، المرجع السابق، ص 332وما بعدها.

[50]–نفسه.

[51]– الإبراهيمي، آثار الإمام، ج2، ص 193.

[52]– الإبراهيمي، " عبد الحي الكتاني ما هو؟ وما شأنه؟"، البصائر، ع33، 26 أفريل 1948م.

[53]– نفسه

[54]–نفسه.

[55]– الحسني، المرجع السابق، ص 106 وما بعدها.

[56]–نفسه.

[58]– الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص 89.

[59]–نفسه.

[60]– نفسه، ص 301 وما بعدها.

[61]–نفسه.

[62]–نفسه.

[63]– مراد، المرجع السابق، ص 102.

[64]–نفسه.

[65]–نفسه.

[66]– عيون البصائر، ص 483.

[67]– الصهيونية هي حركة سياسية عنصرية استعمارية، اشتق اسمها من جبل صهيون في فلسطين، تأسست في المؤتمر الصهيوني الأول الذي ترأسه تيودور هرتزل في بال السويسرية سنة 1897م، تهدف إلى إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين، للمزيد عن أهدافها وإيديولوجيتها راجع: عبد الوهاب محمد المسيري، الإيديولوجية الصهيونية، جزآن، عالم المعرفة، الكويت، 1982م.

[67]– عيون البصائر، ص 484.

[68]–نفسه.

[69]–نفسه، ص 485.

[70]–نفسه.

[71]–نفسه.

[72]–نفسه، ص 488.

[73]– الإبراهيمي، الأثار، ج3، ص 77.

[74]– بن حامد سعدية، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وقضايا عصره (1889-1965م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة 2004-2005م، ص 97.

[75]– عيون البصائر، ص 483.

[76]– الإبراهيمي، الآثار، ج3، 353.

[77] – عيون البصائر، ص 560.

[78]–نفسه.

[79]– الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 559.

[80]– بن حامد، المرجع السابق، ص 101.

[81]للإطلاع على مظاهر دعم جمال عبد الناصر للثورة الجزائرية راجع: بشير سعدوني، "مصر والثورة الجزائرية"، حوليات التاريخ والجغرافيا، ع6، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، ديسمبر 2012م، من ص 170 إلى 186.

[82]– بن حمادة، المرجع السابق، ص 101.

[83]– الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 422.

[84]–نفسه، ص 420.

[85]–نفسه، ج2، ص 375.

[86]– الآثار، ج3، ص 473.

[87]– نفسه، ج2، 472.

[88]– – نفسه، ج5، ص 301.

[89]– نفسه، ج2، ص 405.

[90]– نفسه، ص 420.